القول بالصَرفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني

د. سالم مولود سالم أبوقبة
كلية الاقتصاد العجيلات – جامعة الزاوية

الإطار التمهيدي: عجيب أمر أولائك المصاقيع الكلاميين من العرب الأقحاح، يقف الواحد منهم ممسكاً بعصا أو رمح، معتلياً ربوة أو شرفاً أو نحوهما، جامعاً حوله رهطاً من المستمعين، واقفاً بينهم أو ماثلاً أمامهم خطيباً أو شاعراً ليوم أو بعض يوم، دون أن يُخطئ أو يتلعثم أو يتنحنح، وقد لا يطلب شيئاً مما يعينه على الكلام، أو على الاستمرار فيه، وبخاصة عندما يكون الكلام مرتجلاً.

لا نعجب عندما نجدهم يحاولون إعلان التَّحدي الصارخ لرسول الله ﷺ فيما جاءهم به من كلام منقول عن رب العزة والجلال في قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾**[1]، ولا نعجب أيضاً عندما نجد رسول الله ﷺ يبادلهم التحدِّي منقولاً عن ربه في آيات كثيرة منها قوله تعالى:**﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبدِنَا فَأْتُواْ بِسورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[2]، وقوله تعالى:**﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[3] وقوله تعالى:**﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[4].

وقد استرعى أمرهم هذا انتباه كثير من الفقهاء والعلماء والأدباء، فأسالوا مِداد أقلامهم لإثارة قضية من هذه القضايا وهي قضية:(القول بالصَرفة) لم

يلق قول مما قيل في وجوه إعجاز القرآن الكريم ما لقيه القول بالصرفة القائمة على أنَّ نظم القرآن الكريم وتأليفه مما يقتدر عليه، أمَّا الصرفة القائمة على أنَّ النظم والتأليف في القرآن الكريم مما لا يقتدر عنه فذلك وإنْ أسماه بعضهم صرفاً، فإنَّما هو من قبيل الانصراف عن نظر وإيمان بما عليه ذلك النظم والتأليف الذي جاء به القرآن الكريم من علو لا طاقة لأحد أنْ يطمع في مقاربته.

محور البحث:

ستتطرَّق هذه الأوراق البحثية إلى عَلَمٍ من كبار الأعلام، يعد من مؤسسي علم البلاغة العربية، وكان له رأي بالغ في الصرفة والقول وبالصرفة، وهو: عبد القاهر الجرجاني(5)، فإنَّ فيما جاء عنه كفاء وغناء عن مقالة سواه في هذا الموضوع.

وقبل استعراض موقف الجرجاني من هذه القضية ينبغي لنا التمهيد لحقيقة الصرفة أو القول بالصرفة، فإنَّ نظرية الصرفة تقابل عند المتكلمين وعلماء الإسلام نظرية القول بإعجاز القرآن في ذاته، أو ما يسميه البعض الإعجاز بالنظم، فإذا كان جمهور المسلمين يرى أنَّ القرآن من حيث بلاغته وبراعة سبكه وروعة نظمه وجمال أسلوبه، وصل درجة الكمال والإعجاز، وبالتالي تقصر القدرة البشرية، وتعجز عن الإتيان بمثله، سواء في زمن الوحي والنبوة يوم وقع التحدِّي أوّل مرة، أو قبله أو بعده على حدٍ سواء، بينما نظرية الصرفة على خلاف مذهب الجمهور قائمة على ثلاثة أسس:

أولاً: الاعتراف بفصاحة القرآن وبلاغته، ولكن ليس إلى حد الكمال والإعجاز.

ثانياً: إمكانية الإتيان بمثله فإنَّ ذلك في طوق بلغاء العرب وقدرتهم.

ثالثاً: يكمن إعجاز القرآن في الحيلولة دون معارضته رغم إمكانية ذلك، وقد أشغل علماء الكلام وأصحاب الفلسفة وعلم المنطق أفكارهم في مناقشة هذه القضية بين المؤيد والرافض.

موقف الإمام عبد القاهر الجرجاني من القول بالصرفة:

أفرد الإمام عبد القاهر الجرجاني للقول في إثبات إعجاز القرآن الكريم، وأنَّه آية صدق النبوة المحمدية، وكذلك إثبات فساد القــول بأنَّ وجه إعجازه الصرفة رسالة أسماها (الشافية) وهي تسمية ذات دلالة لطيفة، وكأنَّه بالجمع بين الفريقين: الفريق الذاهب إلى أنَّ القرآن غير معجز بأي وجه من الوجوه، وأنَّه ليس آية النبوة، والفريق الذاهب إلى أنَّ القرآن الكريم معجز، وأنَّه آية صدق النبوة المحمدية إلا أنَّ وجه إعجازه ليست بلاغته وإنَّما الصرفة، يشير بهذا الجمع إلى أنَّهما سواء في الجهالة والضلالة، وأنَّ من يقول بالصرفة قريب ممن يقول بعدم الإعجاز، وأنَّ رسالته قائمة بنقض مقالة كل في بابه نقضاً يشفي من الضلالة والجهالة.

وهذه الرسالة كأنَّها تمهيد للقول في دلائل إعجاز بلاغة القرآن الكريم التي أفرد لها كتابه (دلائل الإعجاز)، فيستفتح الإمام الرسالة بكلمة مهمة هو مؤكدها أيضاً في دلائل الإعجاز، تقول: "اعلم أنَّ لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل"[6]، ويفهم من هذه الكلمة أنَّ أنواع المعاني مقتضية أنواعاً من النظم والتأليف، تختلف باختلافها وهذا مقرر أنَّ معاني القرآن الكريم ليست كمعاني غيره، فيكون نظمه وتأليفه ليس كمثله نظم غيره وتأليفه، وأنَّ معاني القرآن الكريم لها مآخذ لا تكون لغيرها، ومن ثم أمكن

فهم معاني القرآني على علوها ولطفها، وهو يقرر أنَّه في بيانه وجه الدلالة على أنَّ القرآن الكريم معجز متحر الإيضاح والتبيين، وأنَّه يحذو الكلام حذواً هو بعرف علماء العربية أشبه، وفي طريقهم أذهب، وإلى الإفهام جملة أقرب، وهــذا إشارة منه إلى أنَّه متنكِّب طرائق المتكلمين في ذلك، وهو في الشطر الأول من الرسالة جاعلاً كلامه مع من أنكر إعجاز القرآن بالجملة، وأبى أنْ يكون القرآن الكريم آية على صدق النبوة المحمدية بأي وجه من الوجوه، وهو في الشطر الثاني من الرسالة جاعله (في الذي يلزم القائلين بالصرفة).

يبتدئ مقاله ببيان منطلقهم إلى القول بها، وهو أنْ يكونوا قد حسبوا أنَّ مناط التَّحدي إنَّما هو التعبير عن أنفس معاني القرآن الكريم بمثل لفظه ونظمه، فيكون التَّحدي بنفس المعاني، وبمثــل الألفاظ والنظم، وأنَّهم لم يخيَّروا فــي المعاني كلها، فيكون العائق عندهم هو إلزامهم بالتعبير عن أنفس المعاني القرآنية، وهو في بيانه هذا المنطلق يشير إلى أنَّه يحميهم من أنْ يتهموا بما هو أشنع من ذلك الحسبان على الرغم من شناعة ذلك الحسبان الذي أسنده إليهم الإمام عبد القاهر، إذ هو مقرر غفلتهم عن آية﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[7]، وهذه الشناعات التي لا يرى عبد القاهر وقوع القائلين بالصرفة فيها، زعم أنَّ ما كان من أشعار العرب بعد التنزيل من دون ما كان منهم أنفسهم من قبل التنزيل، وهذا يكذِّبه واقع الإبداع الشعري لهم قبل التنزيل ومعه وبعده.

ويلجأ عبد القاهر إلى تكذيب واقع العرب ما يقتضيه القول بالصرفة من حسبان وزعم، وهذا منه ذهاب إلى ما لا يحتمل منازعةً ولا توقُّفاً في التسليم

به، وهو منهاج في الحجاج والإلزام قوي مبين، يعمد إلى توهُّم أنْ يكون قد حدث بالعرب نقصان من بعد التنزيل لم يشعروا به فينقضه بأنَّ ذلك مؤداه أنْ يكونوا الجهلاء بما يفضل به القــرآن كلامهم الباقــي لهم، وجهلهم هذا لو سلم جدلاً يؤدي إلى أنَّهم لم يحاولوا ما يمتاز به بيان القرآن، إذ كيف يحاولون ما يجهلونه، وإذا لم يحالوا لم يحسوا بالمنع، وإذا لم يحسوا بالمنع لم تقم عليهم الحجة، وكل ذلك يكذِّبه الواقع لأنَّهم مقرون بأنَّ ما جاء به القرآن الكريم فوق ما كان منهم من قبله وفي أثناء تنزُّله.

يتطرَّق الجرجاني إلى أمر يجعل موقف أهل الصرفة من شأن العرب كمثله شأن النبي –صلى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم– وهو أنْ تكون النبوة قد منعته شطراً من بيانه الذي كان له قبل نزول القرآن عليه، وأنَّه قبل البعثة أفصح منه بعدها، وهذا أيضاً يكذِّبه الواقع إلا أنَّ تردوا في الحماقة، وزعموا أنَّ النبي –صلى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم– قبيل المبعث لم يكن كمثل العرب فصاحة، وأنَّ حاله قبله وبعده في الفصاحة من دون حالهم، وهذا أيضاً يكذِّبه الواقع، وينقض حسبان أنْ تكون العرب بنزول القرآن قد نقصت من فصاحتها شيئاً كانت عليه من قبله أنْ يكون من حالهم تعجباً من أنفسهم ما أصابها بنزول القرآن مــن نقصان ما كانت عليه فصاحةً أنْ يزعموا أنَّهم عن فصاحتهم قد سحروا، وهذا أيضاً يكذِّبه حالهم فلم يتعجَّب أحد منهم أنَّه نقص من قدرته على قول ما كان يقوله من قبل تنزُّل القرآن الكريم، وفي هذا نذكر ما رواه الإمام محمد بن إسحاق[8] في كتاب السيرة: "من أنَّ عتبة بن ربيعة وكان سيداً في قومه، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالساً في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء... ويكف

عنَّا...؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إليه، فقال: يا ابن أخي، إنَّك منا حيث علمت من السلطة (أي الشرف) في العشيرة، والكمال في النسب، وإنَّك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً، فتنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها. فقال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع، فقال: يا ابن أخي، إنْ كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً: جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإنْ كنت إنَّما تريد شرفاً: سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإنْ كنت تريد به ملكاً: ملَّكناك علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنَّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع إليه قال: أفرغت يا أبا الوليد...؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، قال الرسول ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم﴿**حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ**﴾[9]، ثم مضى رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة وعتبة ينصت إليه، وهو ملق يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، حتى انتهى الرسول إلى السجدة، ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك"، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلمَّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد...؟ قال: "ورائي

أنِّي سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فو الله ليكونَّن لقوله الذي سمعت نبأ، فإنْ تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإنْ يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: قد سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم"[10].

وقصة إسلام عمر بن الخطاب[11] ــ رضي الله عنه ــ وتأثر خالد بن الوليد[12] وعمرو بن العاص[13] بالقرآن الكريم، كلّ ذلك معروف مشهور في كتب السيرة، وكما أُثر عن الوليد بن المغيرة[14] حين قال: "إنَّ أعلاه لمورق، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّ له لطلاوة، وإنَّ عليه لحلاوة"، فإنَّ من المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه، فإنَّه يدهش عقله، ويحيِّر لبه، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة، وحكاية كل قصة، فلو كان ما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك، ولو كان كما زعمه أهل الصرفة، لم يكن للتَّعجب من فصاحته وجه، فلمَّا علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلَّ على فساد هذه المقالة، ويظهر مما تقدَّم أنَّ القول بالصرفة قول في غاية البعد والتهافت، وأنَّه من جنس ما لا يُعذر العاقل في اعتقاده.[15]

ويتخذ الإمام عبد القاهر تكذيب الواقع بما يقتضيه مذهبهم من الحسبان والزعم سبيلاً إلى نقض مذهبهم نقضاً لا قبل لهم بنفيه، فيكون ذلك ألزم وأبلغ إلى المقصد، وهذا منهج حجاجي عقلي متين، وهو في هذا مستمد من الباقلاني[16]، حين عمد إلى نقض مذهب أهل الصرفة بالاعتماد على تكذيب

منطق العقل الفطري، وتكذيب العقل العلمي، وتكذيب الواقع، وبالغ عبد القاهر في تفصيل تكذيب الواقع على ما يقتضيه مذهبه من الحسبان والزعم.

ويتجه عبد القاهر إلى وجه آخر من النقض، هو الوجه البياني إذ يكشف عن جهالتهم وضلالهم في فهم وجه البيان في آية التحدي، سياق آية التحدي دال على غير ما يقتضيه مذهب أهل الصرفة، فإنَّه لا يقال لما كان مقتدراً على شيء ثم منعه: غني قد جئتكم بما لا تقتدرون عليه مجتمعين متناصرين، وإنَّما يقال لهم إنِّي مانعكم مما كنتم عليه مقتدرين فمن فقه بيان آية التحدي يدرك أنَّهم لم يتحدوا بالمنع مما كانوا عليه مقتدرين، بل تحدوا بأنْ يأتوا بأمر لم ولن يكونوا قادرين على مثله وإنْ تناصروا وتظاهروا.

وهذا من الإمام مطعن لأهل الصرفة في منزلهم من فقه البيان، ومن كان كذلك في فقه وجه البيان في آية هي ألصق الآيات بالمقام، وما تضمنته من المعنى غير خفي فكيف به في فقه وجوه البيان في غيرها، فأني لخم أنهم يزعموا أنَّ بلاغة القرآن كمثل بلاغة غيره، كما قال ابن سنان الخفاجي"[17]، كذلك كان مطعن عبد القاهر قاسياً، وهو مستمد من مقالة الخطابي[18].

و يعمد عبد القاهر من بعد إلى النظر في حسبان أنَّ مناط التحدي هو أنفس المعاني بنظم مماثل لنظم القرآن الكريم، فيبيِّن أنَّ قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[19]، دال علـــى فساد ذلك إذ الافتراء إنَّما يكون منهم لمعانيها، فدلَّ هذا على أنَّ المعنى لم يكن قط مناط التحدي.

ويستمر عبد القاهر في تقرير رده القاطع فيسرد أمراً كان قد بدأ به الباقلاني قبله وهو أنَّ منطق العقل يقضي بأنَّه إذا ما كان مناط الإعجاز المنع فإنَّ الأعلى أنْ يكون الممنوع عنه مما يسهل أمره على كل واحد قائلاً: "إنَّ

من حق المنع إذا جعل آية وبرهاناً و لاسيما للنبوة أنْ يكون هذا المنع في أظهر الأمور، لا أنْ يكون المنع من خفي"[20]، يقول الحق تبارك وتعالى في آية التحدي: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْـضٍ ظَهِيرًا**﴾[21]، ففي سياق آية التحدي هذه ما يدل على فساد قولهم، وذلك أنَّه لا يقال عن الشيء يُمنَعُهُ الإنسان بعد القدرة عليه، وبعد أنْ كان يكثُر مثلُه: إنِّي قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله ولو احتشدتم له، ودعوتم الإنس والجن إلى نُصرتكم فيه، وإنَّما يقال: "إنِّي أُعطيتُ أنْ أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأمنعُكم إياه، وأنْ أُفحِمكم عن القول البليغ، وأعدمكم اللفظ الشريف، وما شاكل هذا"[22]، وبمثل هذا استدلّ عبد القاهر الجرجاني على بطلان القول بالصرفة حيث يقول: "فمحال أنْ يعظموه ــ أي القرآن الكريم ــ وأنْ يبهتوا عند سماعه، ويستكينوا له، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه، ويعلمون أنَّه لم يتعذَّر عليهم؛ لأنَّهم لا يستطيعون مثله، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة، والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلاً عليه، بل الواجب في مثل هذه الحال أنْ يقولوا: "إنْ كنا لا يتهيأ لنا أنْ نقول في معاني ما جئت به ما يشبهه، إنَّما نأتيك في غيره من المعاني بما شئت، وكيف شئت، بما لا يقصر عنه"[23].

نخلص إلى أنَّ نظرية إعجاز القرآن الكريم تكمن في ذاته، والذي تدل عليه هذه الأمور التي اقترنت بالعجز عن محاكاته، هو أنَّ القرآن من بيانه العالي الذي لا يعالى، لأنَّ فيه من العلوم ما لم يكونوا يعرفونها، فيه الشرائع المحكمة التي تنظِّم العلاقات بين الآحاد الأقربين وغيرهم، فيه علم الميراث، فيه علم الأحكام المختصة بالأسرة، وفيه بيان خلق الإنسان من سلالة من

طين، وفيه توجيه النظر إلى الكون، وما يشتمل عليه، وفيه من الحقائق ما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير، الذي خلق فسوَّى، والذي أحاط بكل شيء علماً، وفيه القصص والعبر، وما كانوا يعلمون شيئاً من ذلك من قبله، فيه قصة أبي الأنبياء إبراهيم ــ عليه السلام ــ، وقصة بناء الكعبة: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾[24]، وفيه أنباء البلاد التي تعلن آثار الأقوام عمَّا أنزله الله تعالى بهم، وفيه قصة موسى –عليه السلام– وفيه قصة مريم، وكيف اختصموا في كفالتها، وكيف يستخدمون القرعة بالسهام لتكون كفالتها لمن تكون السهام له﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[25]، قرءوا ذلك وسمعوه، فكان العجز لهذه الأمور الذاتية، لا لأمور أخرى ليست من القرآن.

إنَّ معجزات النبيين السابقين ما كان في طاقة الناس أنْ يأتوا بمثلها في ذاتها، ولم يكن بصرف الناس أنْ يأتوا بمثلها، فمعجزة العصا، وتسع الآيات التي لموسى عليه السلام ما كان العجز من الناس بالصرف، ولكن بالعجز الحقيقي، فلماذا لا تكون معجزة النبي ﷺ كسائر المعجزات، وهي أجَلّ وأعظم، وأنَّ الله سبحانه وتعالى قد وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل إليها أية معجزات أخرى، فكانت هذه توجب أنْ يكون إعجازه ذاتيّاً، ولقــد قال تعالت كلماته: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا**﴾ [26]، ويقول جلَّ من قائل: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[27]، وإذا كان القرآن بهذه

الأوصاف التي وصفه بها منزِّله سبحانه وتعالى، أيقال بعد ذلك إنَّ الناس يستطيعون أنْ يأتوا بمثله؟.

الخاتمة

إنَّ الإمام عبد القاهر الجرجاني قد سد كل السبل التي يمكن أنْ تجعل المتوهمين في القول بالصرفة يمكن أنْ يكون ذلك وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم. وأنَّ كلام عبد القاهر الجرجاني في القول بالصرفة لم يغن عن كلام من كان قبله، وإنْ كان أبسط من السابقين في المناقضة، وأنَّه قد نسل بعض كلامه المبسوط من كلام الخطابيّ، وكلام الباقلاني فهو منه كلامهما، وإنْ بدأ أنَّه ليس هو، وذلك شأن عبد القاهر مع كثير من معارف سلفهم.

هنالك فرق بين صرف العباد عن المعارضة وهم قادرون عليها، وصرفهم عنها وهم عنها عاجزون لسمو ما صرفوا عنه سمواً لو خلوا بينهم وبين المعارضة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

نتائج البحث:

1 ــ اهتمام رجال العلم منذ بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا هذا بالقرآن الكريم، وبيانه ومحاولة إظهار وجوه الإعجاز فيه، وفي كل يوم يكتشف العلم شيئاً جديداً مدوناً في كتاب الله تعالى.

2 ــ التحذير من محاولات الأعداء التي لن تهدأ، ولن تقف، ومحاولة إطفاء نور الله بأفواههم وأيديهم وبكل ما يستطيعون.

3 ــ ضرورة الاهتمام بكتاب الله وجعله في المرتبة الأولى من التدريس والحفظ والتفسير وضرورة إقامة مدارس ومعاهد وجامعات خاصة بتدريس كتاب الله تعالى وفروع علومه المختلفة.

4 ــ إحياء المناسبات الدينية المتعلّقة بكتاب الله تعالى مثل ليلة القدر، وليلة الإسراء والمعراج، ومولد الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- وإقامة الملتقيات والندوات الدينية والإشراف الجيد عليها.

5 ــ الاقتداء بالسلف الصالح، والسير على خطاهم، وترسُّم طريقهم في المحافظة على الآثار الإسلامية المختلفة والدفاع عنها لأنَّها جزء من تراث الأمة الإسلامية العريقة التي وصفها الله -تبارك وتعالى- في محكم كتابه بأنَّها خير أمة أخرجت للناس.

هوامش البحث ومراجعه:

(1) الآية67 من سورة المائدة.

(2) الآية23 من سورة البقرة.

(3) الآية38 من سورة يونس.

(4) الآية13 من سورة هود.

(5) عبد القاهر الجرجاني: هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، من أئمة اللغة، من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) من أهم كتبه أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، مات عام471 ه/ 1078م، ينظر: الأعلام 4: 48، 49 ، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط 2 ، 1997 م.

(6) الرسالة الشافية575 – شرح الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم، للإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، الشارح عمر محمد عمر باحاذق، دار المأمون للتراث، دمشق ، ط 1 ،1998م.

(7) الآية13 من سورة هود.

(8) محمد بن إسحاق، هو: أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني، كان مولى لقيس بن مخرمة بن المطلب القرشي، ولد في المدينة المنورة عام 85هـ /703م ، قرأ على علمائها ومحدثيها، أول مؤرخ عربي كتب سيرة النبي محمد بن عبد الله ﷺ سافر من المدينة إلى الإسكندرية والحيرة والكوفة واستقر ببغداد حيث وفر له الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كل الدعم لكتابة تاريخ الرسول ﷺ ، مات ببغداد عام151 هـ /768 م ودفن بمقبرة الخيزران، ينظر: الأعلام للزركلي6 : 28.

(9) الآيات1– 6 من سورة فصلت.

(10) السيرة النبوية1: 293، 294، (سيرة ابن هشام) لعبد الملك هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1990م.

(11) عمر بن الخطاب: هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل والشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، ولد بمكة المكرمة عام40 ق.هـــ / 584 م، وكان في جاهليته من أبطال قريش وأشرفهم، له السفارة فيهم، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، بويع له بالخلافة يوم وفاة أبو بكر الصديق، وفي خلافته فتحت العراق والشام والقدس ومصر والجزيرة العربية، وهو أول من وضع التاريخ الهجري، وأول من أنشأ الدواوين ونظام الجند، قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسي غلام المغيرة بن شعبة غيلة بخنجر في خاصرته وهو في صلاة الصبح، حيث عاش بعد الطعنة ثلاث ليال فقط وذلك عام23 هـ / 644 م ، الأعلام للزركلي5 : 45 .

(12) خالد بن الوليد: هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، سيف الله المسلول، الصحابي الفاتح الكبير، كان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم قبل فتح مكة هو وعمرو بن العاص، قاتل المرتدين مع أبو بكر الصديق، مات بحمص في سوريا عام21 هـــ ، 642 م، الأعلام للزركلي2 : 300.

(13) عمرو بن العاص: هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم السهمي القرشي الكناني، أبو عبد الله، ابن سيد بني سهم، أحد دهاة العرب المشهورين، أرسلته قريش قبل إسلامه إلى الحبشة ليطلب من صاحبه النجاشي تسليمه المهاجرين إليه من المسلمين، بعد إسلامه فتح مصر وشمال إفريقيا، ولد بمكة المكرمة عام592 م، ومات بمصر عام 43هـــ / 682 م ، ينظر: الأعلام للزركلي5: 79.

(14) الوليد بن المغيرة: هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ولد عام 527 م بمكة المكرمة، أحد قادة قريش في العصر الجاهلي، ووالد الصحابي خالد بن الوليد، من أغنى أغنياء قريش، ورد أنَّه قام ببناء أحد أركان الكعبة الشريفة عندما قامت قريش بترميمها واشتركت باقي القبائل في الأركان الأخرى، مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر عن خمس وتسعين عاماً ودفن بالحجون بمكة المكرمة. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(15) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز3 : 219، يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت لبنان، ط 1، 1423هـ.

(16) الباقلاني: هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، ولد بالبصرة عام 338 هـ/ 950 م، قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، كان يجيد الاستنباط، وسريع الجواب، من أشهر كتبه إعجاز القرآن الكريم، سكن بغداد، ومات بها عام403هـ / 1013 م، الأعلام للزركلي6 : 167.

(17) ابن سنان الخفاجي: هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، أبو محمد، ولد في قرية عزاز بمدينة حلب عام 423 هـ/ 1032 م، عرفت أسرته بالعلم والأدب، صحب أبي العلاء المعري وتتلمذ على يديه فبرع في العربية والنقد، أهم كتبه (سر الفصاحة)، وله كتاب في الصرفة، وكتاب الحكم بين النظم والنثر، مات بمسقط رأسه عام 466 هـ / 1073، ينظر: الأعلام للزركلي4 : 122.

(18) الخطابي: هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، أبو سليمان، فقيه محدث، من أهل البست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب، أهم كتبه

بيان إعجاز القرآن الكريم، مات عام 388 هـ/ 998 م، ينظر: الأعلام للزركلي2 : 273 .

(19) الآية13 من سورة هود.

(20) الرسالة الشافية ص621 – 622.

(21) الآية 88 من سورة الإسراء.

(22) دلائل الإعجاز615.

(23) المرجع السابق618.

(24) الآية127 من سورة البقرة.

(25) الآية 44 من سورة آل عمران.

(26) الآية31 من سورة الرعد.

(27) الآية23 من سورة الزمر.

(28) الآية6 من سورة الفاتحة.

(29) الآية2 من سورة البقرة.